العازف

بقلم الأستاذ فاتح ع. المدرس

قصة حملت لبعض الناس وليست لكل

السيد العازف يحرك انامله على البيانو بسرعة فائقة ، ثم يتوقف كأنه قد من حجر ، لتدوي الانغام هاربة بحسرة وهدوء ، وتختفي كأنها لم تكن — او قل هذا ما خيل للعازف — وعيناه قد سمرتا بوجه شمعي يتوج على صدر الآلة الابنوس اللماع كالمرآة ، كان وجها عابثا ، يتجسد لرائيه وجها لرجل جبار صريح حينا ، ووجها لامرأة ناعمة غامضة حينا آخر ، هذا الوجه خفي الخطوط ، من آبنوس شفاف ومن شمع فوسفوري متموج ، وعليه تتراقص ظلال ناعمة جداً سريعة انقلب ترشقها في الاخاديد المعبرة شمعة واحدة تتهادى متعالية بلسانها الاصفر الصقيل . والربع المرحة المتسكعة على الشباك كانت تجاذب هذا اللسان الشمعي اطراف حديث ليلي .

— ذبابة معذبة أنت ! — قالت ذات الوجه الشمعي للعازف — واردفت بسرعة — وشددت بخيط عنكبوت ثبتت في السقف ، عنكبوت مفترس ، ايها العازف هلا نظرت ؟ الي ! كما انك لن تسمعني قط لقد قدر عليك ان تسمع نفسك خيب وهي توحي اليك باحاديثها ، واحاديثك ليست إلا خطوط ودوائر وثقوب .. وها اذ السيد العازف لا يعي ! لا يعي !

وكان العازف حقا لا يعي ، هل هو يعزف ام لا ، الا انه كان يدرك تمام الادراك ان شيئاً ما يجب ان يتم ، عيد ميلاد شيء ، ليملأ فراغا ما لحظة او لحظات ومن ثمة ليزول . فماهو؟ اوتى ستكف هذه الاشباح الصغيرة المدللة ذات الوجوه المستديرة البيضاء والسوداء والاسنان العديدة ، بلى متى ستكف عن تعذيبي. — تمتم العازف — بانتحارها البريء وهي تقفز من حوله لدى اصطدام انامله المكبلة بالاصابع العاجية ، فهذه الرموز الموسيقية المتطايرة ، كانت ليست إلا شجاريز مروعة في سماء خريفية الالوان محترقة الحواشي ، ويحتوي هذه الاسراب التائهة على الآفاق ، ضباب ثائر .

كل شجرور انطلق بجناح واحد اسود لا يتحرك ، ونحو النجوم مضى وعبر التلال الباردة بانطلاقته الغريزية اللينة المحورة ، لاشيء الا تقف الاسراب لحظة خاشعة ، تصلي لكاهن مجهول .. ومن ثمة لتنهار كرماد النيازك . لتختفي بعد ان ترسم دوائر وخطوطاً لا نهاية لها في الفراغ الصارم .

— هل تسمع ايها العازف — تمتم الوجه .

لتختفي ! كل هذا لتختفي فحسب كما جاءت من الخفاء وتمحي كأن لم تكن :

واني اسمع اصداء انهيارها .

انه لحن من الواقع المعدني ، لحن الفناء ، لحن الموت ، وكيف يدفع قافلة الحياة .. انظر .. نحو مجاهيلها يا له من لحن كوني لا يفسر فاحترمه ياسيدي احترمه وهه .. ها كما انك تبدد لهذا اللحن . !

بلى لقد كان العازف يتابع عزفه بشدة — كأن لحنا مجهولا قد استعبده ، ويراقب اللحن الخفي — او بالاحرى — هذا اللحن الاخرس ايقاعاتها ، عريضة تستطيل وتستطيل في سخرية مرة ، سخرية رحيمة تتطاول خلف العازف وعلى المرآة الآبنوسية ينعكس وجهها ، ووجهها باجمعه ابتسامة عابثة ، عابثة للابد فقال متفرساً :

— ويلي من هذا الفم القاسي ، انه ليس من وحل . فأجابه الفم :

— ولكنك تعزف بشدة لا اعهدها . . على فمي هه ها . . ايها السيد العبد .

— « نعم » — اجاب العازف : انني اشعر كمن استعبد لمارد جبار ، فانا وهذا اللحن المعذب ، المكمم بوحل الأرض

طوبى لمن يعزفون إنغامهم في صدورهم بلا آلة كالريح تمر في صدر الغابة تعزف وتعزف بشدة . . .

ـ واشار الى فمها ـ كمن يتخطى اقيانوس المقبرة الكونية وحيدا . . .

فقال الوجه وقد تضرج بالقرمز :

ـ لوحدك ؟ يا لك من ناكر للجميل ؛ كما ان قيادك زهن صيابتي !

واشارت بانملها الشمعية ، انملها الرانجية من تأثير قطران التبغ ، اشارت الى فمها الصاعق ان هلا قبلتني ؟! واردفت :

ـ ولكن تمهل . . . دع اللحن يسيل . اتمم القطعة اولاً ثم . . .

وتقلصت ابتسامتها ، ابتسامتها الوحشية اذ الوجه الشمعي تراجع باجمعه الى ركن سحيق في اقصى رواق المرآة الآبنوسية والتي تشكل جزءاً من البيانو ، هنالك وقفت تهتز ساخرة منه وهمست بقوة :ـ

ـ العازف الشمس ؟

يا للعازف الشمس ! وهه ها . .

واستغرقت في قهقهة لم يجرب العازف الحائر تفسيرها وقال برزانة تصدها فيه جيداً :

ـ ايها الوجه الحبيب ، اميرتي ، متى ستقدر لك الراحة ؟

ـ . . .

ـ ايتها الصغيرة الطافرة : القاع راحة رائعة لو تعلمين ،

ـ . . .

ـ انت في قاع خاطري ـ قال العازف بقسوة بالغة . فتموج الوجه وقالت محملقة بحذر :

ـ أمواجك لا ترحم حتى صخورك ، ويحي من ظنك الآثم .

حقاً لقد تم لخاطره ان يتمطى اخيراً ويحتوي وجهها الذي تحول لى ابتسامة مقهورة ذات تدمير عجيب ، فقالت لاهثة وقد احست ببوادر انتصاره :

ـ لقد تم لك ان تفرقي في بحيرة ظنك الطينية ايها السيد ولكن حاول ان لا تتبعني واشارت بانملها ان اتبعني !

وكان هنالك صراع عنيف بين اربعة عيون في هدأة الليل وكانت الالحان الخرساء المنبثقة من قاع البيانو هي الحاكم لاعمى الفرد بينها .

ـ أنت ابدي الاخطاء ايها العازف ـ قال وجها متحرشا من جديد .

فاطرق العازف لحظة ، وحسب انها تتوسل فتقاص كالجذر وتمتمت المستمعة وهي تتموج من بعيد :

ـ انه لا يعي ، ليته عزف لحناً واحداً ، لقد شارف الليل نهايتـــه . كما انك ابدي الاخطاء ولن اجرب فهم امواجك الخرساء بعد اليوم ، سأمضي لوحدي هل تسمعني ايها العازف؟ وحذار ان تتبعني وامعنت في الابتعاد متجهة نحو القاع بعد ان قذفته باياءة من اعماقها ـ ان هيا اتبعني ـ !

اما العازف فلقد تحول الى كف .. خاطره تحول الى كف فجأة ذات اصابع لا تحصى تبحث عنها ، وزجاجة هـــذه الاصابع كالماء وتداعب وجها شرقي الجمال غريقاً ، وانضح له وهلة انه لا يعزف ، كما انه يحاول انتشالها من قاع ظنه ، اذ ان هذا الوجه هو وجهها بالتأكيد فقال العازف المعذب :

ـ اواه انها ابدية السخرية ، كما انني ابدي الاخطاء ولكن هذا الحنان ، هذا الحنان المسلط كالسيف الى أين يدفعني يارب ؟ !

ـ الى المجهول ـ تعالى مواؤها ـ الى المجهول الرائع ـ صرخت المستمعة واردفت :

الى حقول الآلهة ايها السيد العبـد فهل تسمعني ؟ فامض إمض امض ، هلا مضيت ؟

وكان الصوت قادما من الاعماق البعيدة والعـازف يردد اصداءه بعزفه الاخرس

ـ الى حقول الآلهة ؟ ـ رددالعازف بحسرة وبأس انالست سوى قبضة من وحول الفلوات الموحشة زهرة واحـدة لن تنبت على هذه التربة التي ليست من الارض وليست من السماء

ووهلة كف عن العزف ، ومن قال انه يعزف بانتاكيد؟ وتحسس جبهته بكلتي راحتيه .

ـ تجنون لذيذ ـ تمتم الوجه الشمعي ، وطفحت عيناها بحنان رائع ، حنان حار ، وتعالت من قاعها كمجموعة من الفقاقيع الملونة ، على كل فقاعة ارتسم وجهها الشمعي الصاعق .

فقال العازف بعد ان شد على شفته السفلى باسنانه :ـ

ـ لقـد بدأت تتحول . . تتحول الى لا شيء . سنتمحي

شكوكي الآن برمتها دفعة واحدة
يا المراحة . .

وعادت الانامل العشرة تعبث بالبيانو عادت تنقلص وتنفرج في الفراغ واحس انه يمتص من الاشيء الفارغ لحناً فارغا فصرخ العازف متوسلا :

ـــ أيها الوجه الغريق ، ايها الوجه الغريق .

ـــ يا له من نشيد رائع ـــ قالت المستمعة

فاندفع الى اعماق اللحن كمن يحاول افتراس هم طاغ بالانتقام من نفسه ، ومن هذا الفراغ الذي يتأرجح فيه وقال مستنجداً :

ـــ اني عبد لمارد مجهول لا بد لقد اغلق علي .

أين الدرب ؟ أين الدروب ؟

ورفع بصره الى سقف الغرفة ، الى سقف عالم ، وهمس واجماً :

ـــ عينا المارد ، عيناها ، عينا العنكبوت الكوني .

وانساب شعاع اخضر الى اعماق ظنه الاثيم وألقت الانوار الخضراء وشاحها السام على النجوم في مداراتها وراحت الاشياء في رقصة مسحورة تنداح حلقات حلقات حلزونية حول عرش العنكبوت الكوني ، واللحن بدا رائعا منسجما فقال العازف :

ـــ انا لوحدي انخبط في لحني الفارغ في هذه المفازة

لحني غني بالحشرجات ، لحني من العدم من العدم .

لحني . وسقط رأسه على البيانو في حالة يرثى لها واندفع دوي البيانو مشوشاً السكون . . عندما اندفعت المستمعة وقالت بعتب :

ـــ أهذا كل ما استطاع انشاده العازف العظيم ؟

لقد كانت البداية حلوة واني اذكر احد المقاطع اسمع :

البحر عتمـــة والسماع
والقاع راحـــة رائعـــة

واردفت :

ـــ اني اذكر هذا النشيد جيداً ، النشيد الذي اغرقني فهل تذكره ؟

واحس بقبضتها تشتد على قلبه عصراً ، وشعر بضئالة اذ ذاك امامها ، وانه لا يستطيع ان ينتج شيئاً وهو بعيد عنها ، وتلك اليد الجبارة التي تلامس كتفيه ، بدأت تدفعه من جديد الى اعماق القيعان التي لا يجهل بحرانها الرهيب ، فهوى . . هوى بهوادة وعلى نفس الكف التي دفعته راح يهوى بتراخ وهدوء واستقر على القاع ، في قاع خاطره . . في قاع ظنه الآثم . فتمتم :

ـــ أجل ، القاع راحة رائعة

وكانت عينا ها تحدقان بعينيه بعتب وكبرياء

فقال محموما :

ـــ انها هي ، هي ، يتبدل الكون وهي هي . .

ـــ لقد جعلت من شبكتي لك اوتاراً ـــ قال الوجه الشمعي وشبكتي شيء من الشمس ؛ شيء من دمي

فابتسم العازف وارتاح للنشيد وراح يعزفه ويعزف بشدة متمتماً :ـ

ـــ ايها المارد المجهول ، ايها المارد الحبيب لقد كنت اتوقع ان تنبع خير لناشيد من عينيك ، من اعماقك كلما حدقت في وجهك المدمر ؛

فقالت تعبة من هذا الغزل المتمم : ـ

ـ قل لي انك ستعزف شيئاً جديداً الليلة لقد سئمت الانتظار ولكن لم تحول ظهرك الى ضيوفك اذا كنت لا تود العزف ؟!

ولما كان العازف لم يبدأ بالعزف بعد ، تسنى لالسام قرنفلية صفراء وبنفسجية ان تندفع من الشباك الذي توقعت ان ينبثق منه لحن ما الليلة .

ونثرت من احضانها ما جمعته لها من حقول الليل ولامست باكفها الرطبة جبهة العازف الملتهبة بضجر ، كأنما تستحثه على العزف ، وجففت باكمامها وجه السيدة ذات الوجه الشمعي ،

ـ وهي المستمعة الوحيدة في الغرفة وكانت اذ ذاك تهم باطلاق دمعة مقهورة ، لقد حسبت ذات الوجه الشمعي انها لن تفلح قط تلقاء هذا العازف المكمم ان تكون أي مصدر وحي له .

فقال العازف باسما :

ـ لم يرافقني على دربي العاصف سوى الدمار .

الدمار الفني ! لقد صدقت عندما تنبأت لي بهذا .

فتموج للوجه المنعكس على المرآة الآبنوسية وقال هامساً بضجر وأسى :

ـ دمار فني ؟ اني لا افهم ، والويل لهذا الدمار الفني . لقد كانت مني فكاهة عابرة .

وراحت تستوعب كل ما يمر بخاطر العازف دفعة واحدة وعلمت ان الينبوع قد شارف الانفجار اذ الاشباح الصغيرة قد عادت الى الظهور تطفر من حفرة البيانو ، عادت لتملأ جو الغرفة بوشوشتها المتفائلة كوطاويط الخير ، ثم لا تلبث ان تجمعها الريح المحملة بالشذى ، باذرعها البلورية البديدة وتفر بها ، لتنثرها على الآفاق الخالية . على ملأ الليل تنثرها ، هدية من النجوم البشرية ، من شموع الانسانية التي تضيء وتنشد وتعطي الغير ، ولاتعرف لها عملاً غير هـذا يبرر وجودها

فقال العازف :

ـ انظري كيف تنهار ذراتها وتختفي كأنها لم تكن ، فهل يسرك تحويل الحاضر الى ماض يا اميرتي ؟

عجباً في لحظة واحدة يصبح النغم ماضياً

بقفزة واحدة تنمحي من الوجود وتموت .

فقالت المستمعة بحده :

ـ اسمع تموت او لاتموت ! فهذا البيانو مهدها قبرها ، وهذا ماقدر لها ، كما قدر لهذا التراب ان يكون مهدنا ولحدنا .

فقال متحمساً :

ـ ليتني أدري الى أين تنزح هذه المواليد البريئة فقالت متثائبة : ـ

ـ هل اذا علمت مكان مقابرها يتبدل تفسير الامور عندك ؟

فقال : ـ

ـ على رسلك فهل انا هنا كي ارسم مصيرها التافه فحسب ؟

واردف ساخراً :ـ

ـ وما مصيرها ؟ مصيرها يخيل الى انه لا يتعدى الخطوط والدوائر والثقوب الطائشة التي تملأ هذا الفراغ الرجراج فهل هنا لك من معنى واحد لهـذه الطوائف من الامواج المبهمة التي خلقت مبهمة لتمضي مبهمة ! ؟

فقالت :

ـ جرب أن تضع لوجودها مغزى ، تفسيرا . هـذه هي موسيقاك بعد اليوم فهل سمعت ؟ فابتسم وقال :

ـ امرك مولاتي !

ولكنها تابعت نظريتها متجاهلة نبرة التهكم في صوته :

ـ لاريب ان وراء هذه الدوائر والخطوط التي يرسمها كل حي او جامد ، شيء من المعنى .

عندها اهتزت الشمعة وكادت ان تنطفي واردفت قائلة :

ـ انظر الشمعة ، يخيل الي انهـا وحدها هي التي تحاول فهم مهمتها في هـذه الغرفة الثائرة ، وان كانت مهمتها الليلة انارة جبل من الوهم ، قدر عليك ان ترزح تحت اثقاله !!

لقد كانت صفعة . صفعة خير رهيبة ، فقال العازف محاولاً هضم كل كلمة قيلت :

ـ رويدك اني استشف ما تعنيه يا دماري الفني !!

وحاول ان يقبلها ولكن المرآة الآبنوسية صدته ، صدته فحسب . فقالت متراجعة الى ركنها في اقصى المرآة :

ـ بعد النشيد ، اعني بعد ان تتمم النشيد المطلوب سأقبلك

ـ بعد ان اتمم الانشودة ؟ ولكنها تمت

★

تحطم السكون فانتبه العازف من بحرانه واستدار ليرى المستمعة ذات الوجه الشمعي تتثاءب فقال بسره :

ـ يالها من امرأة كلها خطوط فوسفورية ودوائر ترسم لعالم عيني اغمض معاني الوجود ، خطوطاً ودوائر تشع في الظلام كأنها خلقت لتعبث على تفسير عبثها الارتجالي واردف بصوت مرتفع فقال :

ـ ما اشبهك بالاهليلج الذي ترسمه الشمس في دورتها البسيطة السريعة . انه اهليلج محرق خفي لا يرى ، ولكنه موجود . . .

وراح كفيه على ركبتيه على مهل وهمس كمن يقلد نحيب الأفعى : ـ

ـ ولكن البيانو مقفل يا سيدتي العزيزة !

وها اني انتظر المفتاح ، لقد طلبته منك .

منذ ربع ساعة ! آه المفتاح ، هناك ؛

وغمغمت المستمعة حيرى :

ـ يجلس طوال الليل على المقعد امام البيانو ولايعزف شيئاً لانه .. ينتظر المفتاح !

ولا ادري كيف تحرك العازف وقال :

ـ حسناً . ولكن لا حاجة لي به اذ لم يبق هنا لك ما يثار من الالحان . أنت التي كنت تعزفين طوال الليل ، لقد طفت بي على مزارع ومراعي واعشاش من الالحان لم اعهدها ؛ لقد عزفنا ما فيه الكفاية حتى ضجت الدنيا ؛ هلا سمعتني اعزف ؟ غريب غريب جداً !

ـ الليلة ؟ لا أبداً انني انتظر منك ان تتمرن على الانشودة الجديدة .

وهنا نهض السيد العازف وتحول نحو النافذة وكان الفجر قد شارفت توافله الافق الشرقي وقال كمن يحدث احدًا قد شنق في الفراغ المظلم بصورة مضحكة :

فضحك وضجت حانقة من تفسيره المعكوس للوضع النفساني القلق الذي رزح تحته طوال هذه الليلة والتي لم تشأ هي لسبب مجهول منها ان تنقله الى عالم الواقع فصمتت بدورها طويلا لاتحرك ساكنا كل هذا احتراما لتأملاته التافهة وقالت بشدة :

ـ لقد احرقت ليلة يا كليا ، هل تعلم كم الساعة الآن ؟

نظر الى ساعته وصفر دهشاً :

ـ الرابعة .. الرابعة تماما بعد نصف الليل . اللعنة !

ماذا حدث لي أين كنت أهيم ؟

ـ ماذا قلت ، اذكر انك ذكرت ربع ساعة فحسب أي منذ ربع ساعة طلبت المفتاح . . رائع يمر الزمن ويحمل معه عمرك وتتجاهل وجود هذا الشيء الحقير الزمن ! هه .

ـ سيدتي لن امنح الماضي من نفس أي شيء بعد اليوم مهما كان حقيراً ، ونعم .. الزمن .. الزمن ذلك القول . . وسرح طرفه في الفضاء الشفقي واردف قائلا بألم :

ـ لن اطعم المجهول الكامن وراء افق اللحظة الحاضرة المحدود ـ شيئاً بعد اليوم من نفسي .

فهذا المجهول النهم ـ الماضي ـ القابع وراءنا لا يختلف عن توأمة غول المستقبل القابع في شدق السماوات ؛

مجاهيل متصلة بعضها ببعض حلقات حلقات لانهاية لها كانا نعيش بلاحاضر لن اعزف للغد ، ولن احول الحاضر الى ماضر سأنعم بالنشيد في صدري . ليتك تدركين كم يؤلمني فقد لذاذات اللحظة الحاضرة بفنائها السريع الحقير ..

فقالت السيدة :

ـ يحسن بك ان تعتبر الزمن مزيجاً جميلا من الماضي والحاضر والمستقبل ضع كل هذا في بوتقة الحاضر المحسوس وتذوقه . جرب هذا الطعام

ـ كلا لا استطيع ان ابعد عن عيني قسوة هذا الغم المتثائب الذي يطلب المزيد من دمائنا عند مطلع كل شمس ، كاننا شلال من دم يروى ظمأ احدهم في مكان ما من الكون .

يا للنهم الزمن يلتهمنا فكيف يتم لنا تذوقه ؟

فالحياة . . والزمن فم يتثاءب ويحتوينا .

فقالت :

ـ ان شئت قل حلقة مفرغة هي : عناصر الزمن الثلاثة كما ان تصويرك للفناء باسم النهم كان تصويراً موفقاً ، ولكن دعنا من هذا الهذر لا اخالك تستطيع ان تتمرن على النشيد الجديد بعد نصف الليل اذ اني اخشى ان يستيقظ احد من جيراننا اقول يصحو وفي قبضته مطرقة !!

واشارت الى البيانو .. اشارة ذات مغزى معروف .

فابتسم العازف ونظر بدوره الى البيانو بأسى وقال :

ليبق اللحن في مكمنه المعدني ، لن ادعها ترسم تلك الدوائر السخيفة والخطوط المبهمة بعد اليوم في فراغ هذا الكون . ومن ثمة لتعاد الينا بعد ان تتم دورتها جديدة كأنها جديدة جدا ، يا لسخرية .

فقالت متهكمة :

ـ هل تعني انك ترفض ان تتحول انغامك الى ماض ؟

ـ ؟ ؟ ربما . بل اؤكد ذلك .

ـ رائع لقد صفعت « بتهوفن » العظيم و « تشايكوفسكي » الجبار ايها السيد العازف عن العزف ! ولكني افضل ان اكون

﴿ البقية على صفحة ١٣٨ ﴾